

حالة التكيف الفعلي للإبداع فكرياً ونفسياً وجسدياً أيضاً ، وفي هذا ما فيه من دلالة على ما ينبغي أن تتسم به نظرتنا إلى موسيقى الشعر من إيمان بحرية الشكل الموسيقي في انبثاقه من طبيعة التجربة وملايسات تحولها إلى كلمات هي صور صوتية للخوارج والأفكار المستسرة ، وتقيد هذا الشكل بما يفرض عليه تشكله الموضوعي من أصول واعتبارات . وحين نعرف وظيفة الموسيقى في البناء الشعري فإن ذلك ينبغي أن يوضع في حساباتنا ونحن نحلل قصيدة . إن الإيقاع يضبط خطوات الاكتشاف ، وينظم طريقة التقدم في قراءة قصيدة ، كما أن الموسيقى تستطيع أن تصل إلى مناطق في الشعور الإنساني تعجز الكلمات غير الموسقة عن الوصول إليها ، وتنوع الإيقاع شدة ورخاوة حسب مقتضيات النظم يتجاوز رتبة النظم التي تكون داعياً إلى الملل ، إلى ما هو أعمق اتصالاً بالإشباع الحسي لقوى الإدراك ، لأن التنوع يتعامل مع سلم الأصوات ، فيحرك ويعمل عدداً من الخلايا السمعية أكثر ويماشي الوظيفة الطبيعية للأذن ، وهي تمييز الفروق على أسس متوازنة لا تصدم الاستعداد الطبيعي ، وهذا كله يحقق لذة حسية حقيقية ، تولد عن طريق السماع ، وهي سر الطرب للغناء أكثر من الكلام العادي ، والذي يجعل معظم الأصوات المتقطعة مزعجة هو أن الجسم الذي يقرع مرة واحدة يصدر موجات غير منتظمة حتى إذا كان الاهتزاز متصلاً انتظمت الموجات ، ولأن كان الوزن أو الإيقاع عنصراً جوهرياً في الصوت الموسيقي فلأنه يتيح للأذن أن تتوازن مع الاهتزازات الخارجية ، كتوازن الآلات بعضها مع بعض قبل البدء بالعزف . إنه يتيح لنا التنبؤ بالأصوات والتهيؤ لها : إنه عنصر معلوم في إحساسات سمعية مجهولة ، فهو من هذه الناحية يؤدي إلى اقتصاد في القوة ، وهذا هو السر في جماله . إن فينا جوة داخلية تحتاج ككل جوة إلى أن تنظمها عصا الرئيس» (١٦) .

قد نتردد ، أو نتقبل بكثير من الحذر فكرة الاقتصاد في القوة . هذا التفسير المادي نفسه قد لاحق الصورة الشعرية أيضاً فنظر البعض إليها كأداة اختزال هادف إلى توفير الجهد ، وقد سبق ذلك ، وسبق التحفظ عليه . قد يعين الإيقاع على الاقتصاد في القوة العضلية فعلاً ، ولكنه يحتاج إلى قوة انفعالية أعلى نفقة بكثير في إبداعه على الأقل ، والصلة بين الإيقاع والانفعال القوى مشاهدة سلوكياً ومقررة علمياً ، فالاهتزاز المنتظم والتمرج المطرد في الرقص وحلقات الذكر عند الصوفية وميادين الألعاب والتأهب للقتال أو الغناء . كلها تؤكد هذه الرابطة .